جامعة زيان عاشور – الجلفة

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم العلوم الإنسانية

المستوى: جذع مشترك أولى علوم إنسانية

المقياس: تاريخ الحضارات القديمة

إعداد: د/ أحمد ثليجي

حضارة بلاد النهرين

حضارة بلاد النهرين

تمهيد:

لقد شهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين العديد من الدراسات الأثرية، في النصف الجنوبي من بلاد النهرين، وكان ذلك إيذانا بالكشف عن حضارة السومريين والأكاديين في عديد المدن مثل: كيش والوركاء ولجش ونفر وغيرها، وامتدت التنقيبات الأثرية كذلك إلى العديد من مناطق الشمال مثل أشور ونينوى وغيرها، وظهرت العديد من الدراسات الغربية والعربية واتسمت في كثير من الأحيان بالطابع العلمي في الكشف عن الآثار وقراءة النصوص وتحليلها، بل زاد اهتمام الباحثين والأثريين والمؤرخين بآثار فترة فجر التاريخ فنقبوا في الجنوب واكتشفوا آثار تل العبيد وجمدة نصر، ونقبوا في الشمال واكتشفوا آثار جرمو وتل حلف وحسونة، وهو ما يبين أن كل فترة من فترات تاريخ بلاد النهرين جديرة بالمتابعة والدراسة والبحث.

ولعل أحسن منطلق للحديث عن هذه الحضارة وعن الأقوام العراقية القديمة وتاريخها الطويل أن نبدأ بتحديد المكان الذي نشأت فيه تلك الحضارة. فالمكان يعرف عادة بتسمية من التسميات التي تعطي بمدلولها فكرة واضحة عن الإطار الجغرافي للمنطقة، ويبدو أن نصيب العراق القديم من هذه التسميات في الكتب التاريخية قديمها وحديثها كان كبيرا، فأطلقت تسميات مختلفة ذات مدلولات متباينة للدلالة على ذات المكان. وغالبا ما أطلقت تسميات لا تشير إلا على جزء من أجزاء العراق القديم للدلالة على الكل, كما استخدمت تسميات ذات صيغ وأشكال أجنبية في محاولة من بعض الباحثين الأجانب لفصل الماضي عن الحاضر وتجريد العراق الحديث من تاريخه وتراثه العريق.

ومن التسميات التي أطلقها الباحثون على العراق القديم هي بلاد سومر وهو مصطلح كان يستخدم قديما للدلالة على الجزء الجنوبي من السهل الرسوبي، وبلاد أكاد الذي كان يدل على الجزء الشمالي من السهل الرسوبي، أو بلاد سومر وأكاد، أو بلاد بابل أو بلاد أشور، ومن التسميات الأخرى التي استخدمها الباحثون بلاد النهرين أو ما بين النهرين، إما بصيغتها العربية أو بصيغتها الأجنبية "ميزوبوتاميا".

1) مصادر حضارة بلاد النهرين:

أ -مكتشفات تل جمدة نصر (شمال شرقي كيش) وتبين لنا تقدم الكتابة وتطورها، وتحسن الصناعة وتقدمها.

ب -التقارير: التي عثر عليها في المدن السومرية مثل: لجش و أوما و لارسا وغيرها، وهي عبارة عن عقود لبيع الأراضي أو تأجيرها، وعقود لاستخدام العبيد والعمال، وعقود تجارية كما أن هناك بعض الإصلاحات مثل إصلاح أوروكاجينا ملك لجش الذي حاول تغيير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، كما تحتوي هذه التقارير مراسلات حمورابي مع حكام مدينة لارسا حول تنظيم الري الاصطناعي والتنظيمات الإدارية.

ت -القوانين: مثل القوانين السومرية (قانون أورنامو ، وقانون لبت عشتار) والقوانين البابلية مثل (قانون اشنونا، وقانون حمورابي) والقوانين الأشورية (الوسيطة والحديثة) ، والقوانين البابلية الحديثة. وهي تعطينا الكثير من المعلومات حول العديد من القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمدنية والعسكرية، والقضائية في كل ربوع بلاد النهرين سواء في المرحلة السومرية أو الأكادية أو البابلية أو الأشورية أو الكلدانية.

ث -مجموعة النقوش: مثل "لوحة العقبان" التي تصف انتصارات ايانانوم ملك لجش وتزودنا بمعلومات عن الحرب وأدواتها وأسلحتها وطرق الدفن في ذلك العصر. وكذلك "لوحة النصر" لـ "الملك نرام سين" التي تتحدث عن حروبه وانتصاراته في هضبة إيران مثلا. يضاف إلى ذلك الحوليات وهي النقوش والكتابات التاريخية التي دونت على الحجر والنصب والتماثيل والألواح الطينية لتخليد انتصارات الملوك وانجازاتهم ونشاطهم.

ج -الرسائل الدبلوماسية: المكتشفة في مدينة ماري (تل الحريري) وتوضح العلاقات السياسية في النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد، وبصورة خاصة عن سياسة حمورابي التوسعية.

ح -رسائل تل العمارنة : وجدها المنقبون في مدينة "أخيتاتون" (تل العمارنة) وهي مكتوبة بالخط المسماري وباللغة البابلية والأشورية وهي عبارة عن رسائل سياسية بين فراعنة مصر وحكام سوريا وفلسطين وفينيقا وبلاد النهرين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

خ -النصوص الأدبية والدينية : كقصة الخليقة، وقصة الطوفان، وملحمة جلجامش، وأسطورة صراع مردوخ مع تيامات.....

د –المؤلفات الكلاسيكية : مثل: برعوشا (بيروسوس) المؤرخ البابلي الذي ظهر في العهد الكلداني، ولم يصلنا من مؤلفاته إلا ما أشارت إليه المصادر اليونانية.– يضاف إلى ذلك كتابات هيرودوت، استرابون، ديودور الصقلي، وهي تحتوي على معلومات مهمة حول تاريخ بلاد النهرين وعلاقاتها.

2) موقع العراق وطبيعته الجغرافية:

يقع العراق في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا ويتمتع بموقع استراتيجي وتجاري ذي أهمية قصوى، فقد كان ملتقى الطرق التجارية الموصلة بين البحر المتوسط والمحيط الهندي والشرق الأقصى والهند، وكان لهذا الموقع التجاري المتميز أثره الواضح في حياة سكان العراق الأقدمين واهتمامهم بالتجارة ونشاطهم في تطوير النظم الاقتصادية المختلفة.

وتتألف أراضي العراق من مساحات واسعة للزراعة لا سيما في القسم الجنوبي من البلاد الذي شهد نشوء إحدى أعرق الحضارات الإنسانية المعروفة، وتشق تلك الأراضي الواسعة الأنهار العظيمة (دجلة والفرات) التي تترسب فيها المواد الغرينية سنويا فتجدد خصوبتها, وقد ساعدت هذه الطبيعة المعطاء على نمو مختلف أنواع المحاصيل الزراعية، كما ساعدت على توفر أنواع كثيرة من الحيوانات ذات الفائدة الاقتصادية.

غير أن هذه الطبيعة الغنية بمواردها لم تكن لتيسّر وتسخر لخدمة الإنسان إلا بعد جهود بشرية كبيرة استلزمت توحيد الجماعات والأفراد، ونشوء الإدارات المركزية المشرفة على تنظيم العمل، وكان ذلك على مراحل طويلة وغنية بالإنجازات في حضارة بلاد النهرين.

3) المراحل الكبرى لحضارة بلاد النهرين:

1/ المرحلة السومرية:

أثبتت الاكتشافات الأثرية أن أقدم الحضارات الهامة في بلاد النهرين تطورت على يد قوم ليسوا من الأقوام السامية, ولم يعرف جنسهم الأصلي على وجه التحديد حتى الآن, وهم يسمون "السومريين". ويبرز العنصر السومري على مسرح التاريخ السياسي والحضاري منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد حتى قيام الدولة الأكادية في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد.

وتعتبر سومر مهد حضارة بلاد النهرين من حيث كونها أقدم المواقع الأثرية المهمة التي شهدت أعرق حضارة معروفة في تاريخ البشرية, وهي مهد إرساء دعائم الحضارة العالمية نظرا لما أنتجته من قيم حضارية و إبداعية كانت بمثابة أساس ارتكزت عليه مقومات التقدم البشري.

واتجهت الآراء في تضمين أصل السومريين إلى عدة مذاهب, كان منها ما افترض أصحابه ورأوا أن أجداد السومريين هاجروا إلى جنوب بلاد الرافدين من المرتفعات الشمالية, والشمالية الشرقية التي تحف بها عن طريق أرمينيا وإيران, ولو أنه يمكن أن نستبعد أرمينيا أساسا من هذا الفرض, على اعتبار أنه كان من المستبعد أن يهبط المهاجرون منها وهم أولوا قوة ويتجاوزوا المناطق الصالحة للاستيطان القريبة منها في شمال بلاد الرافدين, ليذهبوا بعيدا عنها ثم يستقروا في الأجزاء الجنوبية التي كانت أطرافها لا تزال حينذاك وحشية الطابع, تتطلب مجهودات كبيرة لتهذيبها وتسهيل الانتفاع به.

وهناك رأي آخر يذهب إلى اعتبار السومريين بدوا جاؤوا من وراء القوقاز, أو مما وراء بحر قزوين, اندفعوا على مناطق غرب إيران فيما يعاصر عصر العبيد,أو أوائل عصر الوركاء, ونجحوا في اقتباس حضارة بلاد النهرين التي امتدت منها عبر حدود إيران ثم استعانوا بما تعلموه منها, وبخفة الحركة البدوية, في الاندفاع إلى جنوب بلاد النهرين منذ الربع الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد, وهو الرأي الذي ذهب إليه صمويل كريمر الذي يعتقد أن هجرة السومريين قد سبقت ظهور الكتابة مباشرة, وأنه لم يكن عليهم أن يبسطوا سلطانهم على المنطقة وحدهم وإنما كان عليهم أن يواجهوا في الوقت نفسه هجرات سامية غربية لم تكن تنقطع اندفاعاتها على حدود بلاد النهرين.

ومن المحتمل أيضا أن السومريين كانوا يقيمون في جنوب أرض الرافدين منذ العصور السابقة للتاريخ, وقد بلغوا هناك في عصر متقدم مرتبة عالية من الحضارة, فقد بدأوا شق القنوات, واستغلال التربة بعقل وتدبير, وإقامة المعابد والتماثيل وغيرها من مظاهر الحضارة.

وقد تركت الحضارة السومرية طابعها المباشر في آشور وسوريا ومصر، ولكن لم يقابل هذا اتساع في النفوذ السياسي، فالواقع أن السومريين كانوا عاجزين دائما من الناحية السياسية عن بناء دولة كبيرة، فقد كانوا منقسمين إلى دول في مدن وبما يشبه ما أصبح يسمى فيما بعد (city–states) أي أن البلاد في هذه المرحلة كانت مجزأة إلى عدة مناطق تقوم في كل منها دويلة صغيرة مستقلة في جميع شؤونها السياسية والعسكرية والإدارية عن غيرها من الدويلات المجاورة.

وكان ملوكها هم الكهنة والممثلين للآلهة المحلية، وتاريخ المدن السومرية قصة متصلة من التنافس, كان التوازن هو الوضع الطبيعي فيها، ولكنه كان ينقطع من حين إلى حين بتفوق إحدى المدن على الأخرى لفترة قصيرة، والسبب في هذا التنافس هو محاولة الحصول على المزيد من الأراضي والسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى مصادر المواد الخام. وكانت الدولة الوحيدة التي بلغت مكانة مرموقة هي تلك التي وفق الملك "لوجال زاجيزي" " lugalzaggisi" إلى إنشائها حول مدينته "أوما" " umma" (تل جوخة حاليا). ولكن بعد أن احتفظ بسيادته سنين عدة غلبته أخيرا دولة سامية تمثلت في الأكاديين، وكان ذلك حوالي 2350ق.م.

ويمكن أن نشير إلى أنه, ومن خلال التطور السياسي في العهد السومري, أن الملك في المدن السومرية لقب في بداية أمره بلقب إنسي" ensi" ربما بمعنى النائب أو الوكيل, إشارة إلى وكالته عن معبود مدينته في حكم بلده وأهلها, وإشارة إلى القداسة بالوكالة التي يرتكز عليها في ممارسة سلطاته الدينية والمدنية. وعلى أية حال فإن التنظيم السياسي لحكومة المدينة السومرية إنما يمثل مرحلة هامة في تاريخ الفكر الإنساني, لأنه يشهد بتواجد التفكير الديمقراطي في بداية العصر التاريخي، وانتخاب الحاكم الذي يرأس حكومة المدينة بناء على قرارات الجمعية العمومية التي تضم كل الرجال الأحرار من مواطني حكومة المدينة– وربما اشترك فيها النساء أيضا– ومن ثم يمكن القول بأن التنظيم السياسي لحكومة المدينة إنما قد نشأ مع قيام المدن نفسها.

2/المرحلة الأكادية:

إذا كانت الدولة السومرية اعتمدت على تنظيم المجتمع تنظيما سياسيا, وكان الكهنة على رأسه من خلال توليهم السلطة الروحية والمادية, وتسيير المعبد الذي يعتبر النواة الأساسية في الحضارة السومرية, فإن الوضع قد تغير مع الأكاديين الذين يختلفون عن السومريين من حيث البنية الاقتصادية والاجتماعية.

وخلافا للسومريين الذين ما يزال أصلهم وأصل لغتهم مجهولين لحد الآن، فإن الأكاديين يمثلون واحدة من أقدم هجرات قبائل الجزيرة إلى بلاد النهرين، كما أن لغتهم تعود في أصولها إلى عائلة لغات الجزيرة الأم التي تفرعت إلى فروع منها الأكادية والبابلية والأشورية والعربية والعبرية والأرامية وهي التي كانت تسمى باللغات السامية.

لقد توتر الوضع بين السومريين ودولتهم وأفكارهم الدينية من جهة, وبين الساميين سكان البادية من جهة أخرى الذين لهم أفكارهم الخاصة التي تقوم على أساس حرية الفرد, منسجمة وطبيعتهم في حب الغزو, والتنقل غير المشروط , فهي تترك للفرد حرية العمل وجمع الثروات من جهة, بينما تميل من جهة أخرى إلى فرض الإرادة الخاصة على الغير. وعندما أخذت العقلية السومرية التنظيمية تدور في حلقة مفرغة وتميل نحو الزوال– عندما عجزت عن تلبية المتطلبات والرغبات الخاصة– سارع الساميون الأكاديون من جهتهم إلى اتخاذ الإجراءات الضرورية الحيوية والواقعية في هذا المجال ليسدوا ذلك الفراغ.

والأكاديون فرع من هجرات سامية متتالية تكاثرت أعدادها في بوادي بلاد النهرين والشام قبيل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد, ثم تشعبت فروع كثيرة, فكان منها ما انتشر في بوادي الشام, واتجهت آمال بعض جماعاته إلى مناطق الهلال الخصيب فيها, كما كان منها ما اقتربت جماعاته من المناطق الخصبة في أواسط حوض نهر الفرات ببلاد النهرين, وعرف أصحاب الشعبة الأولى باسم أطلقه السومريون عليهم وهو(الأموريون) ربما بمعنى أهل الغرب, أما جماعات الشعبة الأخرى, فكان أظهر فروعها فرع(الأكاديين) الذين اكتسبوا اسمهم مؤخرا نسبة إلى العاصمة أكاد (أو أجادة)، التي أصبحت مركزا لنشاطهم السياسي والحربي بعد فترة من استقرارهم في بلاد الرافدين, وبعد أن انتظمت أمورهم وعز شأنهم فيها.

وكان الأكاديون قبل ظهورهم على المسرح السياسي بزمن يقيمون في أرض الرافدين حول أطراف المدن السومرية, ويعيشون على الرعي وفق تقاليدهم القديمة, وكان أول عمل كبير أثبتوا به وجودهم هو ذلك النصر الذي قضوا به على مملكة "لوجال زاجيزي" وأقاموا مكانها دولة أكد السامية.

وقد سيطر زعماء أكاد على بعض المدن السومرية النشأة كانت أهمها مدينة "كيش" صاحبة الأثر القديم في مجريات الحوادث بين المدن السومرية الكبيرة, فاستفادوا من حضارتها هي وأمثالها وتأقلموا معها شيئا فشيئا, ولم يكن لديهم ما يضيفونه إليها وهم أهل بادية, غير دماء فتية طموحة, قدر لها فيما بعد أن تنجح في تكوين أول دولة كبيرة مستقرة في بلاد النهرين ولأن تشكل مستقبلها الدولي خلال ما يزيد عن قرن ونصف قرن.

وكان مؤسس دولة أكاد هو "سرجون" " saragon" الذي تقول عنه الأساطير أنه كان بستانيا من قبل, وأنه ترك وهو طفل رضيع على مياه النهر, ولكنه أنقذ بمعجزة بمساعدة الإلهة عشتار التي ساعدته للوصول إلى الحكم . وقد مد سيطرته فشملت إقليم بابل كله وآشور وسوريا, بل تغلغلت في آسيا الصغرى أيضا, وفي عهده صارت للدولة إدارة مركزية منظمة أصبحت تحتذيها الدول اللاحقة.

ولم يقض سرجون – كما يعتقد للوهلة الأولى– مدة حكمه في الحروب وساحات القتال, وإخضاع القبائل والشعوب لسلطانه فحسب, وإنما خصص وقتا كافيا لإنجاز المشاريع الاقتصادية وبناء الدولة، ولا شك في أن الوحدة التي أقامها هذا الملك بين مناطق بلاد النهرين هي التي سهلت عليه تنفيذ هذه المشاريع التي اقتضت وحدة ضمت جميع مقاطعات البلاد ومدنها, وذلك عكس ما حدث في عهد دول المدن السومرية, وخاصة في مرحلتها الأخيرة أين كثرت المنازعات حول المياه وملكية الأراضي الزراعية.

وكان التفاعل الحضاري بين الأكاديين والسومريين قد بدأ خلال عصور مبكرة جدا من تاريخ غرب آسيا القديم, أي قبل أن يستأثر الأكاديون بالسلطة في بلاد الرافدين, ولم يمنع الاختلاف العرقي واللغوي الأكاديين من تبني أفكار السومريين الدينية, ومؤسساتهم وأخلاقهم وهذا تحت تأثير العلاقات الاقتصادية التي أقاموها معهم.

وأدت الأعمال التي قام بها سرجون إلى توطيد أكاد وصمودها ما يقرب من قرنين من الزمان إلى أن اكتسحتها قبيلة الجوتيين التي انحدرت من جبال إيران الشمالية الشرقية.

وقد تمثلت هذه القبيلة في الشعب الجوتي البربري الذي نزح من جبال إيران الشمالية الشرقية، وغزا بلاد النهرين. وجاءت اليقظة السومرية كرد فعل على سياسة الأكاديين التكتيكية التوسعية على يد جوديا "Godea" أمير لجش الذي كان يميل إلى الفكرة السلمية اللاتوسعية.

وفي الأخير يمكن أن نقول أن فترة الأكاديين كانت لامعة من الناحية السياسية والحضارية لأنها تعتبر أول محاولة للتوحيد في بلاد النهرين, بعد العمل الذي قام به"لوجال زاجيزي"الذي ذكرناه سابقا، كما أنها حاولت نشر العلوم, والمعارف, والفنون, والكتابة في بلاد الرافدين والأقطار المجاورة, وقد وجدت ألواح من الطين مكتوبة بالخط المسماري, وباللغة الأكادية في كثير من المناطق البعيدة مثل الأناضول.

وفي المرحلة ما بين(2111–2002 ق.م) برزت سلالة أور الثالثة وقامت بإحياء الحضارة السومرية حيث تقدمت القيم الثقافية والإنسانية في هذا العهد تقدما ملموسا, وانتشرت المعارف من علوم وآداب وفنون, ودونت كثير من الأخبار التاريخية القديمة, وشرعت القوانين التي تنشر قيم العدالة في المجتمع.

3/المرحلة البابلية:

يعرف البابليون بالأموريين الذين انتشروا بين المدن المتحضرة في بلاد النهرين واستقروا فيها وولوا حكم بعضها, وكانت بابل قبل زعامتهم لها, بلدة عادية عرفها السومريون باسم "كدنجيرا" فأحالوها إلى حاضرة كبيرة وأحسنوا استغلال موقعها الزراعي والتجاري, لقيامها في منطقة خصبة يتقارب فيها نهرا دجلة والفرات .

وقد عرفها الأكاديون أيضا باسم "باب إليم" "Bab–ilim" أي "بوابة الإله"، وقد ذكرت لأول مرة بهذا الاسم في أواخر القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد عندما بنى فيها الملك "شاركال شاري"معبدا للإلهة عشتار, وتحول اسم "باب–إليم" إلى بابل في التوراة, وبابيلون "Babylon "عند الإغريق.

وقد أخذت المعلومات تتواتر عن الأموريين بكثرة في المصادر القديمة بعد زمن نرام سين الأكادي, فقد أشار إليهم الملك الأكادي الأخير"شاركال شاري" وجوديا حاكم لجش، وأغلب ملوك سلالة أور الثالثة بخاصة الملك الأخير شوسين, الذي عرف بتشييده سورا منيعا لوقف زحفهم على المدن العراقية وسماه بسور مارتو, ويمكننا الاعتماد على بدء ذكرهم في المصادر العراقية القديمة للوصول إلى تحديد تاريخ هجرتهم.

فالمصادر من عهد الدولة الأكادية تشير إليهم كقوة عسكرية وقفت في وجه زحف الأكاديين على بلاد الشام, فلا بد أن تكون بداية هجرتهم إلى موطنهم الأصلي في بلاد الشام قبل زمن هذه المصادر, وإذا ما عرفنا بأن بداية الدولة الأكادية ترجع إلى حوالي 2350ق.م أمكننا إضافة بضعة قرون على هذا التاريخ واعتبار النتيجة تاريخ بداية هجرة الأموريين إلى بلاد الشام, أي ما بين (2800–2500 ق.م) .

ولقد شهدت السنين الأخيرة من الألف الثالثة قبل الميلاد احتضار الشعب السومري في نهضته الثانية, وانقرض به حكم السومريين نهائيا, فبعد سقوط سلالة أور الثالثة تألفت عدة دويلات في مدن مختلفة, إحداها في"ايسن" والأخرى في"لارسا" والثالثة في"بابل", وكان النزاع على أشده

فيما بينها, فساعد هذا التنازع الذي استمر نحو قرنين, الأموريين على إظهار استقلالهم في بابل وما حولها بعد انتصارهم على المدن المتنازعة, فتشكلت المملكة البابلية السامية التي صارت تعرف بالمملكة البابلية القديمة، وهي المملكة السامية الثانية بعد الإمبراطورية الأكادية .

وقد أطلق المؤرخون تسمية العهد البابلي القديم على الفترة التي حكمت فيها هذه المملكة والتي دامت ما يقرب من أربعة قرون، أي منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد وحتى نهاية سلالة بابل الأولى (حوالي 1600 ق.م), وتشمل عهد سلالتي ايسن و لارسا, وسلالة بابل الأولى.

وفي نفس الفترة اشتهرت في هذا العهد سلالة حكمت في ماري(على الفرات الأوسط) وهي سلالة من الساميين الغربيين, وقد كشفت التنقيبات الفرنسية في هذه المدينة عن حضارة مزدهرة وأبنية لقصور فخمة مزينة بنقوش بديعة, كما وأنه وجدت فيها مجموعة كبيرة من ألوح الطين تعد بعشرات الألوف, تحتوي على مواضيع مهمة في مختلف صنوف العلم والمعرفة. إضافة إلى ذلك فقد كانت مملكة اشنونا (في منطقة ديالي) من الدول التي لعبت دورا هاما في هذا العهد, وقد عثرت مديرية الآثار العراقية في إحدى مدنها القديمة ولا سيما في (تل حرمل) على مجموعة كبيرة من وثائقها التاريخية, ومن ذلك مثلا شريعة مملكة اشنونا التي سبقت شريعة حمورابي إضافة إلى ما وجد فيها من الكتابات العلمية المدونة على الرقم الطينية.

وعلى أية حال فإنه إذا ألقينا نظرة عامة على تلك السلالات الحاكمة من دويلات المدن والتي حكمت في العهد البابلي, وجدنا أن هذه الحقبة أثرت كثيرا في تاريخ بلاد الرافدين من الناحية السياسية, فقد كانت هذه السلالات في صراع ونزاع مستمرين فيما بينها على السلطة.

وأخيرا تمكنت سلالة بابل الأولى من القضاء على تلك الدويلات المتنازعة, فأعادت نظام المملكة الموحدة, ووسعت رقعتها شيئا فشيئا بضم كافة المدن المستقلة تحت نفوذها، وخاصة في عهد ملكها السادس المشرع الكبير حمورابي(1792–1750ق.م)الذي تمكن بأعماله الحربية من فرض الزعامة السياسية في جميع أنحاء الشرق الأدنى, واشتهر بقوانينه العادلة وإدارته الحاسمة, بالإضافة إلى إصلاحاته الكثيرة.

وكان أول ملوك هذه السلالة الملك"سمو–أبوم" (sumu–Abum) الذي حكم 13سنة، بين سنتي(1894–1881 ق.م) وقد اتخذ بابل عاصمة له, وكانت بابل في ذلك الوقت بلدة صغيرة لم تشتهر بعد, كما كان يقطنها بعض الأعراب الغربيين، وبقايا الأكاديين الذين كانت عاصمتهم أكاد قريبة من منطقة بابل.

وكان سادس ملوك الدولة البابلية هو حمورابي الذي يعد من أعظم ملوك هذه الدولة بل وأشهرهم جميعا, وعرفت البلاد بأسرها باسم العاصمة بابل، وكان عهده بداية فترة أخرى من الازدهار العظيم، ففي الميدان السياسي امتدت سلطة بابل إلى آشور وجزء من سوريا, وفي المجال الديني يرجع إلى حمورابي خاصة الفضل في علو شأن الإله "مردوك" الذي أصبح زعيم الآلهة، وأصبحت طقوس عبادته هي الطقوس الرسمية للدولة. وفي المجال الاقتصادي نظم حمورابي البلاد من جديد وأصلحها بالتوسع في الزراعة, وشق الكثير من القنوات الجديدة وتنظيم الري, والعمل على توسيع نطاق التجارة.

وقد كان برنامج حمورابي هو تقوية الإدارة الداخلية أولا وتوطيد دعائم عرشه في الداخل, ثم تقوية وسائل الدفاع حول المدن الهامة، وقد جمع حمورابي خصالا عديدة جعلته قائدا وسياسيا ومشرعا ومصلحا, وكان قد شرع بتقوية الإدارات والمؤسسات, وتوطيد حكم الإمبراطورية البابلية القديمة, وكان لهذه السياسة أكبر الأثر في نهضة بابل السريعة, حيث أعاد حمورابي إمبراطورية سرجون الأكادي وكان انتصاره حدثا نوعيا في تاريخ بلاد الرافدين.

ولم تقم شهرة حمورابي على أعماله العسكرية والسياسية فحسب, بل على جملة التحولات الحضارية التي أرسى دعائمها في أرجاء الدولة كافة, ومن جملة هذه الإنجازات الحضارية وضعه لمجموعة من القوانين التي حظيت بشهرة كبيرة في شتى ربوع أرض الرافدين وحتى خارجها, وتعتبر مجموعة القوانين هذه من أقدم القوانين في العالم, ومن أكثرها شمولا وأرفعها مستوى.

وقد انتهت الدولة البابلية الأولى حوالي 1350ق.م, حيث أغار عليها الحيثيون، وهم من شعوب آسيا الصغرى, فكانت غارتهم رغم قصر أمدها بداية فترة من السيطرة الأجنبية, هي الفترة التي أخذت فيها "شعوب الجبال" تسيطر على الشرق الأدنى, والتي يرجح أنها كانت من الشعوب الهندو أوربية.

ولم يكد الحيثيون ينسحبون حتى دانت بابل لسيطرة أجنبية أخرى, هي سيطرة الكاشيين وهم شعب من الشرق, يبدو من أسماء آلهته, أنه كان يضم عناصر هندية–أوربية، وكانوا يعيشون في بابل نتيجة فترة طويلة من التغلغل السلمي, ولكنهم استفادوا من الفترة التي ساد فيها الحيثيون, فاغتصبوا السلطة واحتفظوا بها بضعة قرون حتى حوالي 1160 ق.م، وكان مستوى حضارتهم أقل كثيرا من حضارة البلد الذي غلبوه, فأدت سيطرتهم إلى اضمحلال شديد في حضارة بلاد النهرين.

4/المرحلة الأشورية:

بينما كان الكاشيون يسيطرون على بابل, كان شعب سامي يتقدم نحو الصدارة في شمال بلاد النهرين, ونعني به الأشوريين, الذين ينتسبون إلى اسم أشور، هذا الاسم الذي تسمّت به كل من الأرض والعاصمة والمعبود الأكبر وسكان شمال بلاد النهرين الأوائل , وكانت شهرتها ترجع إلى ما كان يتحلى به جيشها من تنظيم وتماسك.

والأشوريون في الأصل فرع من الأقوام السامية التي هاجرت من مهد الساميين الأصلي وهو جزيرة العرب على ما يقول به جمهور الباحثين, إلا أنهم لم يأتوا رأسا من جزيرة العرب إلى شمال بلاد النهرين وهم بدو غزاة, وإنما حلوا في موطن مؤقت بعد هجرة أجدادهم من الجزيرة, وانتقلوا منه إلى البلاد التي صارت فيما بعد موطنا ثابتا لهم، ويفترض العلماء لذلك فرضين أولهما:

أن الأشوريين جاؤوا من الجنوب من أرض بابل– وربما في العهد الأكادي– معتمدين في ذلك على التقارب بين اللغتين الأشورية والبابلية رغم وجود بعض الاختلافات بينهما.

وثانيهما أن الأشوريين موجة أرامية جاءت من سوريا, أي أنهم من الساميين الغربيين وربما كان الرأيان صحيحين، بمعنى أن الأشوريين فرع من الساميين الذين جاؤوا من سورية كما أنهم فرع من الساميين الذين جاؤوا من الجنوب من بابل.

ويرى بريستد خلاف ذلك حيث يقول: " أن سكان المنطقة الواقعة إلى الشمال من بلاد بابل ليسوا من الأصل السامي جميعا, بل كان يعيش بينهم أقوام يتكلمون لغات غير سامية ومن أجناس غير سامية, ففي الألف الثالث قبل الميلاد كان يعيش في المكان الذي تقوم فيه مدينة أشور بلدة سومرية عثر على آثار أهلها هناك".

وكانت الدولة الأشورية قائمة فعلا منذ بضعة قرون, فقد حكمت في تلك الأرجاء عند ملتقى القرن التاسع عشر بالقرن الثامن عشر قبل الميلاد أسرة أكادية أسسها "ايلو شوما" illushuma "ثم تبعتها أسرة أمورية أسسها شمشي–أدد " shamshi–Adad "الأول الذي يكون حسب وثائق ماري معاصرا ومنافسا لحمورابي، وقد جاءت بعد هذه المرحلة المتقدمة من دولة الأشوريين فترة طويلة من الاضمحلال انتهت بها في القرن الخامس عشر,إلى أن تصبح تابعة لدولة الحوريين في أرض ميتاني"Mitani ", ولكن في القرن التالي عندما قضى الحيثيون على سلطان ميتاني استطاعت أشور أن تنهض من جديد وتصبح دولة عظمى.

ولم تبدأ حروب أشور التوسعية إلا حوالي 932ق.م وكان الآراميون المستوطنون في بلاد الرافدين أول فريسة لها, وقد انتصرت عليهم وضمتهم إليها بين سنتي 932 و859 ق.م، وبعد ذلك في أيام شلمانصرالثالث احتلت موطئ قدم لها على شاطئ الفرات الغربي, وعملت على احتلال سوريا وضمها إليها.

وكانت سياسة أشور تتبع خطوطا أساسية ثلاثة: ففي الشمال كان ملوكها يهدفون إلى السيطرة على الممرات الجبلية لحماية أنفسهم من التهديد بالغزو من ذلك الطريق, وفي الغرب فرضوا على سوريا وفلسطين الجزية, وسيطروا على الطريق المؤدي إلى مصر والبحر, وفي الجنوب كانوا يعاملون دولة بابل التي تفوقهم في مضمار الحضارة بحكمة دبلوماسية, مكنت "تجلت–بيلصر الثالث" أخيرا من أن يجلس على عرش بابل أيضا.

ومن هذا المنطلق فقد اتسع سلطان الدولة الأشورية، وشمل معظم أنحاء الشرق الأدنى القديم، فدخلت أجزاء من بلاد وادي النيل تحت النفوذ الأشوري إضافة إلى فلسطين وسوريا وأجزاء من آسيا الصغرى، كما خضعت للسيطرة الأشورية جميع الأقوام القاطنة في المناطق الجبلية الواقعة في الشمال والشمال الشرقي من البلاد.

وكان آشور بانيبال(Ashur banibal) (668–626ق.م) الذي اشتهر في الأساطير باسم"سردانا بالوس" آخر كبار ملوك الأشوريين, ولكن خلفاءه لم يلبثوا أن تهاووا أمام هجوم الميديين الذين زحفوا من هضبة إيران واستولوا عام 612 ق.م على نينوى عاصمة الأشوريين وخربوها تخريبا, وهكذا انهارت الإمبراطورية الأشورية وابتلعت الرمال قصورها العظيمة .

وعلى كل حال فإن الأشوريين أنفسهم ورعاياهم الغريبين عنهم, أصبحوا فريسة للنشاط الأشوري الذي بذل لبناء الإمبراطورية, فقد نقص السكان في موطن الأشوريين الأصلي بسبب الذين سقطوا قتلى في الحروب, وبسبب ما فرضته إقامة المستعمرات والحاميات الأشورية في البلاد المفتوحة من نزيف في القوى البشرية, والثغرة التي حدثت في أرض الوطن الأشوري عبئت عن طريق استيراد أقوام غريبة, حتى أن سكان النواة الأشورية أصبحوا شبه أراميين, يضاف إلى ذلك أن التوتر الاجتماعي الذي فرضه على الشعب الأشوري تجنيده المستمر للحملات العسكرية البعيدة, والتي كانت تتزايد, أثار اضطرابات سياسية داخلية.

إن الدولة الأشورية بنت وجودها على أساس عسكري حربي فحملها ذلك على استخدام الخيل والمركبات الحربية, وابتداع المنجنيق وأنواعه، وبحكم احتكاك الأشوريين بالشعوب والأمم المتحضرة

كالحيثيين, والأموريين, والأراميين, والفينيقيين, تمكنوا من صنع الآلات المعدنية المصنوعة من النحاس الأحمر, ثم توصلوا إلى استعمال البرونز, ثم استعملوا بعد ذلك الحديد في صنع الأسلحة إذ تعلموا صناعته من الحيثيين الذين سبقوهم في إتقان استخلاصه وصناعته، وهذا الاهتمام بالصناعة العسكرية هو الذي مكنهم من التوسع في القرون التالية, وقد ساعدتهم فتوحاتهم على توسيع تجارتهم, فحذق تجارهم أساليب التجارة وعاش كثير من التجار في محلات أنشأ وه ا في عدة أماكن في جنوب شرق آسيا الصغرى.

وقد اشتهر الأشوريون بقدرتهم على استعمال ما يقتبسونه من شعوب أجنبية, فيطبعونه بطابعهم الخاص بمنتهى الدقة, وذلك مما حملهم على الاهتمام بالفنون الجميلة والأدب,ولا أدل على اهتمامهم بالناحية الأدبية والثقافية مما تركوه من ميراث حضاري في خزانة الكتب(ألواح الطين) التي أنشأها الملك آشور بانيبال(669-626ق.م).

وفي الأخير يمكن أن نقول أن الأشوريين تركوا لمن خلفهم من أمم تراثا حضاريا مجيدا على الرغم من اهتمامهم الشديد بالناحية العسكرية التوسعية, فقد حدثت بعد وفاة آشور بانيبال سنة 626 قبل الميلاد منازعات على العرش أوهنت جهاز الحكم الأشوري, فانفصلت المقاطعات البعيدة كمصر والمدن الساحلية في فلسطين وسوريا عن المملكة الأشورية, وكذلك انتهزت بابل الفرصة وانفصلت عنها واستقلت بزعامة الأمير الكلداني"نابو بولاسر" الذي أسس المملكة البابلية الثانية أو الدولة الكلدانية, وبذلك قضي على الإمبراطورية الأشورية, ثالث الإمبراطوريات السامية التي أسست في بلاد النهرين.

5/المرحلة الكلدانية:

انتهت الدولة الأشورية عام 612 ق.م بسقوط عاصمتها نينوى على أيدي الفرس الميديين والقبائل الكلدانية في بابل، وبسقوط نينوى ينتهي دور الأشوريين السياسي على مسرح الشرق الأدنى القديم وينتقل مركز الثقل والقوة ثانية إلى بابل على عهد الكلدانيين.

ويرجح أن الكلدانيين كانوا فرعا من الأراميين، استوطنوا جنوب بلاد النهرين منذ النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد , كما يرجع علماء الآثار أن وطنهم الأصلي يعود إلى شواطئ الخليج العربي في جنوبي العراق, حيث أسست هناك منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد أو ربما

قبل ذلك سلالة الأمراء التي عرفت عند المؤرخين بسلالة القطر البحري أو سلالة بابل الثانية التي كان جزء منها من بقايا السومريين .

وقد تمكن ملوك هذه السلالة من بسط سيطرتهم ونفوذهم على سواحل الخليج العربي وأكثر المدن السومرية والأكادية في جنوب العراق بعد أن كان الجنس السومري يتلاشى في الجنس السامي الأكادي والبابلي.

وكان يحكم بابل في حوالي عام 626 ق.م الأمير الكلداني "نابو بولاسر" (626-605) وقد تزعم الثورة ضد الأشوريين ولم تتمكن القوات الأشورية الموجودة في نيبور من هزيمته, فأعلن نفسه ملكا على بابل ومؤسسا للأسرة الحادية عشرة البابلية وهي التي تعرف باسم "الأسرة البابلية الأخيرة" أو "المملكة الكلدانية"، ولعل من أهم الأحداث السياسية في عهد "نابو بولاسر" بعد تخلصه من أشور,هي تلك الحملة التي أرسلها بقيادة ابنه "نبوخذ نصر" لاسترجاع سورية وفلسطين من النفوذ المصري حتى يبقى طريقهم إلى البحر مفتوحا.

وقد لعبت أسرة بابل المذكورة دورا مهما في تاريخ الشرق الأدنى في القرن السادس قبل الميلاد, فقد استولت على جميع الدويلات في سورية وفي فلسطين وبلغت أوج ازدهارها في عهد "نبوخذ نصر" خليفة "نابو بولاسر".

ويعد نبوخذ نصر من أبرز ملوك العهد الكلداني, وقد دام حكمه ثلاثا وأربعين سنة(562-605ق.م) وهو ما يمثل قرابة نصف حكم هذه الأسرة, وإن أهم ما نورده حول حملاته الحربية, الحملتان اللتان قام بهما على مملكة "يهوذا" والقضاء عليها، وسبي اليهود إلى بلاد بابل، فقد وجه حملته الأولى سنة 597 ق.م على يهوذا فاستولى على أورشليم وسبى اليهود إلى بلاد بابل ومعهم الملك"يهو ياكين" وأهل بيته، ثم تبعه السبي البابلي الثاني سنة 586 ق.م, إذ جاء نبوخذ نصر هذه المرة بنفسه على رأس حملة قوية واحتل أورشليم فخربها, وأحرق بيت الملك وكل بيوت الأعيان وقد وصل عدد الأسرى إلى حوالي5000 مابين السبي الأول والثاني.

وبعد وفاة نبوخذ نصر سنة 562 ق.م خلفه على عرش بابل ملوك ضعفاء حتى وقعت بابل لقمة سائغة بيد (كورش- Cyrus)الإخميني, فسمح كورش لمن يشاء من اليهود بعد احتلاله لبابل بالعودة إلى فلسطين، فعاد بعضهم وقد آثر البعض الآخر البقاء.

وتمثل التوراة " نبوخذ نصر" في صورة المحاربين, ولكنه اكتسب مجدا خالدا في بلاده بفضل أعماله السلمية قبل كل شيء, فقد زاد المعابد والقنوات والطرق أضعافا مضاعفة, واستعادت بابل في عهده رونقها القديم، وتسجل الحوليات البابلية(التي نشرها وايزمان– D.J.Wisemen عام 1956) أعماله الحربية, كما يروي"اكسونوفون(Xenophon), وهيرودوت بناءه التحصينات الهائلة, ومنها سور عظيم صارت به مدينة بابل منيعة ضد كل الغزاة.

وقد أخذ الكلدانيون بالحضارة البابلية القديمة كما فعل غيرهم من الغزاة الساميين الآخرين الذين نزحوا إلى سهل بابل, وأضافوا إليها كثيرا من عندهم فتحسنت الفنون والصناعات وعنوا بالدين والآداب عناية كبيرة، وقطعوا أشواطا واسعة في علم الفلك, وظهر بين الكلدانيين حكماء وعلماء في مختلف الفنون والمعارف كالمهن التعليمية والعلوم الرياضية والكهنوتية.

كما برع الكلدانيون في فن التطريز, حتى لقد كانوا يصورون على النسيج الصور التي رسموها على جدران قصورهم, وعلى الرغم من تقليد الكلدانيين في أشياء كثيرة إلا أنهم فاقوا أسلافهم في فخامة الأبنية وأبهة الدولة, وأصبحت بابل في عصر نبوخذ نصر أعظم مدينة في المعمورة, وكانت بابل نبوخذ نصر هذه هي التي أدهشت أب التاريخ هيرودوت اليوناني بعجائبها وفخامتها.